من هنا وهناك

نشأة الصحافة الفرنسية فى مصر

إذا كانت الطباعة قد سبقت الصحافة بأوقات متفاوتة فى البلاد الأخرى ، فان مصر لم تعرف عنهما شيئاً قبل قدوم الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ ، حيث جاءها نابليون بونابرت بالاثنتين معاً .

كانت مصر ولاية عثمانية . وقد أنشئت أول مطبعة فى القسطنطينية سنة ١٧٢٨ . ولم يفكر واحد من الباشوات الذين تعاقبوا على حكم مصر فى إنشاء مطبعة أخرى فى القاهرة أو فى الاسكندرية . أما البكوات المماليك فلم يكن لديهم متسع من الوقت للبحث فى مثل هذا الموضوع ؛ فقد شغلوا بالمؤامرات التى كانوا يدبرونها لولاة الباب العالى ، كما كان أكبر قسط من تفكيرهم يرمى إلى دعم سلطانهم وابتزاز الأموال من التجار والفلاحين وبث الذعر والرعب بين الأهالى ، حتى ضج القوم من مظالمهم وارتفعت الشكوى من طغيانهم .

ولم يكن غرض نابليون بونابرت من فتحه لمصر حربيا فحسب ، بل أراد لحملته مدى أوسع وأثراً أبلغ ؛ فاستصحب معه طائفة من أشهر علماء عصره ، قاموا بالبحث والتنقيب فى أرجاء البلاد وعاونوه فى نواحى النشاط السياسى والاجتماعى والاقتصادى جميعاً . وكان هو حريصاً على أن ينشر الآراء ويذيع البحوث حتى يعرف رجال الحملة خاصة والفرنسيون عامة نتائج أعماله ومدى نجاحه . فأحضر معه لذلك الغرض مطبعة مزودة بالحروف العربية واللاتينية واليونانية .

ولم يمض ستون يوماً على نزول الحملة فى الأراضى المصرية حتى أصدر نابليون صحيفته الاخبارية السياسية *Courrier de l'Egypte* أى « بريد مصر » . وظهر العدد الأول منها فى ٢٨ أغسطس سنة ١٧٩٨ فى أربع صفحات تقارب قطع هذه المجلة . وكانت الجريدة تظهر مرة كل أربعة أيام فى الشهر الأول ، ثم تجاوزت هذه المدة وأصبح صدورها غير منتظم .

وقد وضعت للجريدة منذ نشأتها

سياسة محددة لم تبتعد عنها فى يوم من الأيام ؛ فهى لا تتعرض بالنقد لأعمال الحكومة الفرنسية بأى حال من الأحوال، وكان الحجر يخضع لاعتبارات كثيرة عند اختيار الأخبار ونشرها ، فمصير الجريدة حتما إلى أيدى الجنود والضباط الفرنسيين المقيمين بمصر وغيرها . وقواد الجيش لا يهتمون بشئ مثل اهتمامهم بالروح المعنوية القوية التى يجب أن تسود قوات الاحتلال ، ولا يسمحون بنشر أى خبر يمس تلك الناحية من قريب أو من بعيد .

وعلى ذلك كانت جريدة لوكورييه دائمة التفاؤل ، بعيدة كل البعد عن الأخبار المثيرة الداخلية منها والخارجية. ويغلب عليها الطابع العسكرى الذى يبث روح الشجاعة والاقدام فى الجنود والضباط. وهى تسرف فى وصف ساحات القتال ، وتحاول أن تثبت الكلمات الأخيرة لمن يموتون بين قصف المدافع وصليل السيوف . وتكثر من وصف الحفلات التى يحضرها نابليون بونابرت، وتتحدث باسهاب عن حركات المقاومة التى يقوم بها الأهالى فى مختلف البلاد. ولكنها كانت ترمى فى الأولى إلى مدح القائد العام ورجاله ، وتدعى فى الثانية أن الفلاحين يستقبلون الفرنسيين فى كل مكان بالفرح والابتهاج ؛ لأنهم يخلصونهم من عسف البدو الرحل وظلم المماليك .

وكانت النداءات والتنبيهات التى تصدر للأهالى تجمع بين الثناء على بونابرت والتهديد بالشدة والحزم . وكانت تترجم وتنشر فى الجريدة حتى يطلع عليها الجنود ، فيتخيلون مبلغ قوتهم ويتصورون مدى نجاحهم . مثل ذلك ماجاء فى أحد المنشورات من « أن نابليون قد منع القوات من إحراق مدينة القاهرة وسلبها ؛ لأنه حكيم ، وخير ورحيم بالمسلمين . فهو حامى الفقراء . ولولاه لما بقى أهل القاهرة على قيد الحياة » .

ومضى كليبر ومينو من بعد بونابرت على نفس الطريقة فى الدعاية بين الأهالى . وكان مينو خاصة يذكرها فى منشوراته بالمظالم التى عانوها وبالدماء التى سالت فى القاهرة وبولاق والمحلة الكبرى عندما استمعوا لأهل السوء ، ويهددهم آخر الأمر بالنار والحديد إذا ماسولت لهم أنفسهم العودة إلى مناوأة رجال الاحتلال . ويختم النداء بما يأتى : « سلام على من اتبع الهدى . . . والويل لمن ابتعد عن الصراط المستقيم . »

وكانت جريدة لوكورييه تعنى عناية خاصة بأخبار الرحلات والبحوث

التى كان يقوم بها العلماء الفرنسيون . وكانت تأتى بملخصات لتقاريرهم عن الأماكن التى زاروها وعن نواحى نشاطهم العلمى والفنى . . . ثم يزيد المحرر عليها مايخالج فؤاده من الأمل فى التقدم والرقى .

فالزراعة مثلا تبشر بالخير لارتفاع مناسيب النيل ونتيجة للتحسينات التى أدخلت على وسائل الرى . . . كما أن الرجاء كبير فى تحسن الصحة العامة فى البلاد ؛ لأن الأطباء الفرنسيين يبحثون كل يوم عن الداء ، ويصفون الدواء الناجع ، وينشرون فى كل مكان وسائل الوقاية من الأمراض المتوطنة . . . وجباية الأموال « الميرى » سوف يسودها العدل والانصاف ؛ لأن الحكومة قد وضعت لذلك قواعد ثابتة ستقوم بتطبيقها فى كل أنحاء البلاد وعلى كل الأفراد بلا استثناء . . . أما الأمن والحرية فالفرنسيون ما جاءوا مصر إلا للدعوة لها علميا بواسطة علمائهم ومشرعيهم ، وعمليا بواسطة جيش الشرق . وليس من المعقول أن يأتى رسل « الحرية والاخاء والمساواة » إلى مصر ويضعوا فيها قواعد لا تقوم على الحرية والاخاء والمساواة .

ولم تكن الجريدة تقتصر فى أنبائها على مصر ، بل كانت تحمل أيضاً الكثير من الأخبار الخارجية . فهى تسجل تنقلات الجيش الفرنسى فى الشرق وتأتى بأخباره تباعاً . وتنقل النص الكامل لدستور الجمهورية الفرنسية .. كما أنها تفرد مكاناً خاصا فى كل عدد لأنباء فرنسا ، وتنشر المكاتبات المتبادلة بين بونابرت وخلفائه وبين حكومة الادارة . وكانت تحرص على العناية بالتقارير التى كان يقدمها قائد جيش الشرق إلى تلك الحكومة. وكان للهيئة التشريعية الفرنسية مكان ممتاز فى لوكورييه ؛ إذ كانت تهتم اهتماماً خاصا بأخبارها وتنشر مناقشاتها ، وتسهب إذا كان الأمر يتعلق بالحملة وأعمالها، وتسجل كلمات الثناء والتقدير التى كان يرسلها الأعضاء عابرة البحار لمواطنيهم فى مصر .

وكانت الجريدة تختار من أنباء أوربا مايلائم السياسة الدولية الفرنسية فى ذلك العصر ، مثل اهتمامها بالصراع بين إيرلندا و بريطانيا العظمى؛ فهى تنشر أخبار هذا النزاع فى بضعة أعداد متتالية تهاجم فيها بريطانيا هجوماً عنيفاً ، وتزعم أن الوزراء الانجليز قد أخفقوا فى سياستهم إزاء إيرلندا ، وأنهم كانوا ينتقمون من الارلنديين فيقتلون المجاهدين

منهم فى سبيل استقلال بلادهم .

أما فى الناحية الأدبية فقد حرصت لوكورييه على ألا تثير شعور الحنين للوطن . فاهتمت ببعض الشعر الذى يمداح الجيش وقائده . ونشرت بعض القصائد التى تصف النيل والبلاد والآثار المصرية وصفاً يحببها إلى القلوب ويدنيها من الذوق الفرنسى . ولكن هذا الشعر كان يفتقر إلى الوحى الصادق والتعبير الصحيح ، فلاعجب إذا ظهرت هذه الناحية ضعيفة مبتذلة سقيمة .

وجاءت الجريدة أيضاً ببعض الاعلانات التى تهم قراءها ، مثل الاعلان المنتظم عن المجلة الأدبية التى يصدرها المجمع العلمى المصرى ، وإعلانات أخرى عن بعض الحوانيت أو عن أشياء مفقودة أو عن حفلات ساهرة وغيرها . . . ومع ذلك فقد ظل هذا الباب ضيقاً وبقى عدد الاعلانات محدوداً طوال مدة ظهور الصحيفة .

هذه بعض النواحى التى اهتمت بها الصحيفة الفرنسية الأخبارية ، السياسية الأولى التى ظهرت فى مصر. ذكرناها على سبيل المثال لا الحصر، لكى نعطى صورة واضحة لها بقدر المستطاع . وكان يشرف على تحريرها تباعاً المواطن كوستاز Costaz ثم المواطن فورييه Fourier ، ثم المواطن الدكتور ديجنت Desgenettes ، وقد صدر منها ستة عشر ومائة عدد يحمل الأخير تاريخ ٩ يونية سنة ١٨٠١ . وطبع الثلاثون عدداً الأولى فى مطبعة مارك أوريل Marc Aurel أما الأعداد الأخرى فقد قامت بطبعها المطبعة التى أحضرها نابليون . وكانت لغتها بسيطة يتخللها الكثير من الأخطاء المطبعية وبعض الغلطات اللغوية . وقد لاقت رواجاً كبيراً بين المواطنين لأنها حملت لهم أخبار إخوانهم فى البلاد الأخرى وأنباء فرنسا موطنهم الأصلى .

وفى أول أكتوبر سنة ١٧٩٨ صدر العدد الأول من *La Décade Egyptienne* أى « العشرية المصرية وهى أول مجلة فرنسية أدبية علمية اقتصادية تظهر فى مصر . وقد تقرر إنشاؤها فى أول اجتماع للمعهد العلمى المصرى حتى تكون سجلا له تنشر فيه بحوث علمائه وتقارير أعضائه.

وقد جمعت الأعداد التسعة الأولى التى ظهرت بانتظام مرة كل عشرة أيام فى مجلد أهدى إلى نابليون وجاء فى مقدمته التى حررها المواطن تاليان Tallien « أن الهدف الذى

نرمى إليه ليس تعريف مصر إلى الفرنسيين المقيمين فيها الآن فحسب ، بل نريد أيضاً أن نعرفها إلى فرنسا وإلى الأوربيين جميعاً » . ثم ظهرت « لاديكاد » بعد ذلك مرة كل شهر ، وكونت الأعداد التسعة التالية كتاباً أهدى إلى الجنرال كليبر . ثم شاءت الأقدار أن يهدى المجلد الثالث والأخير منها إلى الجنرال مينو .

وليس فى نيتنا أن نحصر هنا كل المواضيع التى عالجها العلماء الفرنسيون ونشرتها « لاديكاد » . ولكن يجدر بنا أن نلاحظ أن هذه المجلة قد سجلت النواحى العديدة لنشاط الفكر الفرنسى فى مصر ، ونقلت الكثير من التقارير بحيث أصبحت شبه موسوعة صغيرة نجد فيها التاريخ والجغرافيا والآداب والاقتصاد السياسى والعلوم الطبيعية والزراعية والطبية وغير ذلك من مختلف البحوث .

وقد حمل كل عدد من « لاديكاد » ملخصاً لمحضر جلسات المجمع والمناقشات التى تدور فيها . ومما يلفت النظر أنه قلما وجد عدد خلا من تقرير طبى لأحد أطباء الجيش الفرنسى . ومن طريف ما كان يقرأ فيها هذه الملاحظات التى أتى بها الطبيب سيرزول Cérésole فى تقريره عن رحلة قام بها من القاهرة إلى أسيوط . قال : « إن خوف الفلاحين من الأطباء شديد للغاية . وهم يميلون إلى الخرافات ولا يصدقون كلمة العلم . أما اعتقادهم بالقضاء والقدر فقد بلغ حد التعصب . وأظن أن ذلك ناتج عن الآراء والأفكار التى ورثوها عن قدماء المصريين . . وإنى ليدهشنى أن أرى مقابر الأموات وقد اعتنى بها عناية فائقة على حين بقيت منازل الأحياء مهدمة قذرة لا تتوافر فيها أبسط الشروط الطبية . . . » وكانت هذه التقارير ترفع إلى الدكتور ديجنت كبير أطباء الجيش الذى يرجع إليه الفضل فى نشرها وإذاعتها .

وإذا أردنا أن نختار بعض الأمثلة للبحوث الأخرى التى كانت تنشر فى « لاديكاد » وجدنا صعوبة فى التفضيل بينها لما يحمل كل منها من المزايا العلمية والفنية جميعاً . وعلى كل حال فان تخطيط بعض البلاد المصرية ومواقعها والحالة الاجتماعية والاقتصادية والزراعية فيها قد شغل مكاناً كبيراً من المجلة . فتحدث نويه Nouet عن موقع القاهرة الجغرافى . وكتب جيرار Girard عن الزراعة والصناعة والتجارة فى دمياط ومصر العليا ، واهتم كاريه Carrié بمنطقة منوف . وبحث أندريوسى Andréossy فى تكوين

بحيرة المنزلة ووادى النطرون وحلل رنيو Regnault غرين النيل . ووصف فورييه Fourier الواحات . ودرس تاليان Tallien نظام الحكم فى مصر قبل الحملة ، وأبان طرق جباية الأموال الأميرية ، وتحدث عن النقود والميراث والأوقاف .

وقد كتب أسماء البلاد والأماكن فى هذه التقارير باللغتين الفرنسية والعربية . . . وكان للترجمة شأن ملحوظ فى « لاديكاد » ؛ إذ نقل المستشرق حنا يوسف مارسيل Jean Joseph Marcel فاتحة القرآن إلى الفرنسية شعراً . وكانت ترجمته صحيحة ما عدا بعض الألفاظ والعبارات التى اضطر إلى إضافتها لتكوين الشعر ، كما ترجم أمثال لقمان الحكيم وشرح قيمتها عند الشرقيين مستشهداً ببعض الآيات ، القرآنية مثل : « ولقد آتينا لقمان الحكمة » .

وخلاصة القول أنه يمكننا أن نعتبر مجلة « لاديكاد » سجلا قيما يرجع إليه الناس إذا أرادوا أن يطلعوا على مختلف الموضوعات الشائقة التى شغلت نخبة مختارة من العلماء الفرنسيين الذين أقاموا فى مصر من سنة ١٧٩٨ إلى سنة ١٨٠١ .

وبانتهاء الحملة الفرنسية عادت مصر إلى خلوها من الطباعة والصحافة. ولكن لا يمكننا أن ننكر أثر « لوكورييه » « ولاديكاد » فى تاريخ بلادنا . ومع أن المصريين كانوا يجهلون اللغة الفرنسية فى ذلك العصر . فان انتشار هاتين الجريدتين بين العامة والخاصة من الفرنسيين . قد لفت نظرهم إلى تلك القوة الجديدة التى يمكن الانتفاع بها للصالح العام .

ومع ذلك فقد ظلت مصر تفتقر إلى الطباعة والصحافة حتى جاءها بهما محمد على . ثم تطورت الصحافة من رسمية إلى شعبية فى عهد الخديو اسماعيل ، وتعددت لغاتها وتنوعت بحوثها وقوى ساعدها وسايرت مقومات الحضارة الحديثة .

اميل غالى